

دلالة هشاشة العملية السياسية

أزمة تشكيل الحكومة العراقية

عاد نائب الرئيس الأمريكي جوزيف بايدن هذا الأسبوع إلى العراق، في زيارة جديدة، من أجل محادثات تشكيل الحكومة. فلا زال العراق يعيش أزمته السياسية التي تتمثل في عدم تشكيل حكومته، بعد مضي أكثر من خمسة أشهر على انتخاباته التي أجراها في مارس/ آذار 2010.



شغل خلال هذه الفترة 47 منصباً حكومياً، بينما توفيق السويدي شغل 19 منصباً. في هذا المثال التاريخي يتبين لنا أن ما أمات ديمقراطية العراق السابقة لم يكن القوة الأجنبية، ولا القبائل أو الجيش، ولا طبقات الأعيان أو التجار، ولا جموع الجماهير المنتظرة.. ما أماتها هو استفراد النخبة الحاكمة بالسلطة، وإفسادها للديمقراطية التي أتت معها. يوضح عبد الوهاب رشيد في كتابه "التحول الديمقراطي في العراق.. 2006" أن النظام العراقي في تلك الفترة جسد الحكم في بضعة أشخاص كانوا مدعومين بالعائلات والقبائل القوية، ولم يكونوا يتورعون عن استخدام القبائل أو الجيش لفرض سلطتهم.

عين على الديمقراطية

عوارض كثيرة تقف ضد نبذة العراق الديمقراطية اليوم، ومن أهمها سيطرة نخبة وطبقة معينة على مفاصل الحياة السياسية في العراق. مؤخرًا انشغل المشهد السياسي في العراق بأبناء تظهر وتختفي بأن دولة القانون وحزب الدعوة وفقاً أخيراً على تبديل الملكي كمرشح لهما لرئاسة الوزراء، بعد أن شاهدها كثرة الممانعة ضدها! وهذا التصرف يحد ذاته يعكس كيف أنهما يتصرفان وكأنهما فازا بالأغلبية، ويوضح أنهما يشكلان نخبة لا تزال ترى أنها هي من يدير العراق، وأنها احتكرت هذا المنصب سلفاً. الكثير ينتظر تشكيل الحكومة لتنتهي المشكلة، لكن الحقيقة أن المشكلة قد تبدأ بعد تشكيل الحكومة، إذا استفردت بالسلطة طبقة معينة مدعومة! من المهم أن لا تفصل الديمقراطية ونظامها على نخبة واحدة.. هذا ما فعلته بريطانيا في السابق، حين فصلت الديمقراطية على مقياس النخبة الشريفة، فقد رأت - حسب ما جاء في تقاريرها - أن تدعم قوة واحدة تدير لها البلد، وتكفيها عناء التعامل مع القوى المختلفة فيه. وهذا ما يحدث اليوم حين تمارس الولايات المتحدة الضغط من أجل اختيار الملكي ودعم حزبه لسنوات أخرى ماثلة، فتمت الاستفادة بذلك من عامل الزمن، ويتم ترسيم نخبة معينة وخط محدد لإدارة البلد. ولم يحدث أن القوى الخارجية استطاعت استغلال بلد يكون الرأي فيه بيد الشعب، لذا تعمل القوى الخارجية دوماً على خلق نخبة مهيمنة تتواطأ معها. صحيح أن حكومة العراق تحوي تنوعاً بداخلها اليوم، لكن هذا التنوع مشابه لتنوع الحكومة في بدايات الديمقراطية السابقة، والذي سريعا ما يستحوذ عليه نخبة مدعومة.



وأصبحت لها سيطرة مطلقة على الدولة. واليوم، هناك توجس من أن ينتج في العراق استفرد نخوي بالسلطة يشبه ما حدث في ديمقراطية العراق السابقة. العراق.. درس تاريخي قبل نحو قرن من الزمان، كان العراق واقعا تحت الاحتلال البريطاني كما هو اليوم تحت الاحتلال الأمريكي، ثم تهيأت له مع بدايات تأسيسه كدولة ذات نظام ملكي دستوري، تجربة ديمقراطية لا تخلو من عبر. يخبر المؤرخ مجيد خدوري في كتابه "العراق المستقل" أن التفاؤل كان يسود أجواء البدايات في العراق في تلك الفترة. فبحسب المعايير القائمة في ذلك الوقت، حاز العراق شكلاً حديثاً ومنظماً للدولة ولهيكل مؤسساتها، وشهد مشاركة شعبية واسعة بعد أن توافقت الكثير من القوى على الملك فيصل بن الحسين كقائد مناسب للعراق. دلت الملامح على أن العراق الملكي (1921-1958) شهد تجربة ديمقراطية تمثلت في الحركة البرلمانية النشطة، ووجود الأحزاب المعارضة، إضافة إلى حرية الصحافة. ولكن مع هذا، معنى الديمقراطية في العراق في العشرينيات، كان يختلف عنه في الثلاثينيات وعنه في الأربعينيات! ففي العشرينيات كان العراق تحت الاحتلال البريطاني، وهذا ما ولد توحيداً والتحاماً للقوى العراقية وجميع أطراف الشعب للتخلص من المحتل، وما دفع إلى إنجاح بعض مظاهر الديمقراطية تحت حكم فيصل. وفي الثلاثينيات وبعد الحصول على الاستقلال، والموت المفاجئ لفيصل، برز على السطح صراع حاد بين جناحي النخبة الشريفة الحاكمة تغلبت فيه أخيراً نخبة نوري السعيد التي ساندتها بريطانيا، على النخبة الأخرى لياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني التي رفضت أي تدخل بريطاني. وبدأت تبرز مظاهر استفرد هذه النخبة بالسلطة وتكسيبها لمجاديف الديمقراطية في العراق من خلال منع الأحزاب المعارضة، وحل مجلس النواب لعدة مرات، وإلغاء صحافة المعارضة. وفي الأربعينيات، واصلت هذه النخبة استفرادها وسيطرتها على الساحة السياسية العراقية بشكل أعمق، خصوصاً بعد أن ساعدتها ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية، وظلت كذلك حتى اقتلعتها ثورة عام 1958. وللتدليل على حالة استفراد بالسلطة، يذكر نزار الحسو في كتابه "الصراع على السلطة في العراق الملكي.. 1984" أنه في خلال هذه العقود الأربعة مر على العراق الملكي 58 وزارة، و780 منصباً رسمياً في الحكومة، و166 شخصاً فقط هم من شغلوا هذه المناصب. وهذا يدل على التكرار والتداول الحصري للمناصب داخل هذه النخبة، فرييس وزراء مثل نوري السعيد



والترويج له، فهو يمتلك كل الموارد التي تمكنه من فعل ذلك، وهو القايض على السلطة التي تمكنه من التغلغل في مفاصل البلد، وتكلم سلطتها التنفيذية، وبناء شبكة علاقاته مع النخب والقوى المحلية الموجودة في البلد، وأيضا تلك الخارجية. وينجح هذا الأمر خصوصاً في حالة التحول الديمقراطي، حين تنجح النخبة الجديدة في الاستفادة من الفراغ الذي يعقب هذا التحول وتوجيهه لصالحها. هذه ممارسات تنجح في تسمير الطبقة الحاكمة، وتثبيت مكانها في نظام انتخابي، حين يغيب الوعي عن ملاحقتها والتنبه لتصرفاتها. يتحدث منظرو الديمقراطية عن حاجتها إلى الاحتضان والتقبل الثقافي من قبل الشارع، وأيضا من موقع المسؤول لكي تبقى. فصعوبة الديمقراطية ليست في التغيير الهيكلي أو إجراء الانتخابات، بل في تمتع القوى الموجودة بالنزاهة وروح المسؤولية والقبول بتبادلية الأدوار، فالديمقراطية إنما جاءت من أجل تشذيب علاقات القوة وإقامة التوازنات. وبسبب هذه الصعوبة، ذهبت كثير من الديمقراطيات الجديدة سريعا، وكأنها لم تولد إلا لتموت. في بداية القرن العشرين كان هناك بضع دول ذات نظام ديمقراطي، وبعد بضع سنوات من بداية هذا القرن عمّت العالم موجة جديدة من الديمقراطيات. بدأ ذلك مع ثورة ديمقراطية في روسيا عام 1905، ثم تبعتها الدولة العثمانية وإيران والصين والمكسيك والبرتغال. تميزت كل واحدة من هذه الحركات الديمقراطية بأنها زلزلت الحكم الأوتوقراطي، حكم الفرد المطلق المتجذر في بلدانها بسرعة مباغتة، وقامت بإنشاء البرلمانات ودعت إلى الانتخابات وأطلقت حرية التجمع والصحافة. هذه الدول نبتت فيها الديمقراطية فجأة، ولم يكن لديها مناخ مناسب يساعد في تثبيتها. فشلت هذه الديمقراطيات في البقاء بعد سنوات قليلة من قيامها، فكل واحدة منها قامت عليها ثورة مضادة أسقطتها بدعوى أنها فشلت في تحقيق الحقوق والحرية التي وعدت بها، ما عدا ديمقراطية البرتغال التي أفلحت في البقاء بعد الثورة عليها، ولكن تقوّض برلمانها في ما بعد (عام 1926). وفي إيران والدولة العثمانية كان هناك رواج للمشروطة، وهذه المفردة لا تعني بالضبط أهداف الديمقراطية، ولكنها تشارك معها في بعض الأهداف، مثل تحجيم الحكم المطلق، والتأسيس لانتخابات تنافسية. والنموذج العثماني مثال واضح على أن النخبة التي تحوز السلطة تفسد العملية الديمقراطية كلها. لقد فشلت الحركة الديمقراطية سريعا في الدولة العثمانية، بعدما أتت نتيجة إصلاح متأخر من السلطان عبد الحميد. فجمعية الاتحاد والترقي التي حازت أغلبية نيابية بعد الثورة الإصلاحية عام 1908 لم يرق لها الأمر حين خافت من تقلص شعبيتها لاحقا، وقامت بثورة أخرى عام 1909 خلعت فيها السلطان عبد الحميد،

عبد العزيز الحبيص

كان من المفترض أن يحسم الفوز لمن حاز أغلبية الأصوات، ويتم المضي في العملية الديمقراطية في البلاد، ومحاولة إيقافها على أرجلها.. فلم يكن العراق ينتظر مشكلة تضاف إلى مشاكله. أعلنت الانتخابات فوز "القائمة العراقية" بأكثر عدد من الأصوات، ونالت حق تشكيل الحكومة، لكن القوى الأخرى لم تسلم بذلك، وحاولت التمسك بأي وسيلة وطريقة تستطيع من خلالها منع ذلك.

مأزق تشكيل الحكومة

مأزق تشكيل الحكومة هنا هو أبلغ دلالات هشاشة العملية السياسية، فرييس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي كان أكثر صراحة حين اعترف بعد توالي الضغوط عليه، بأنه لا يرى أن هناك مرشحا آخر أفضل منه للعراق، وأنه لن يستسلم للضغوط! ويذعي المالكي أيضا أنه إن تخلى عن الترشيح فإن الآخرين لن يستطيعوا الاستمرار في العملية السياسية.

هذه من أهم دروس الديمقراطية في العراق الجديد، وأعني بذلك التنكر الذي يمارسه المالكي للعملية السياسية هنا؛ أي شخص بالعالم تنتهي ولايته يستطيع أن يبرر لنفسه البقاء بما يريد من الحجج والأعداء، والالية الديمقراطية لم توجد إلا للقضاء على مثل هذا السلوك! لكن يبدو أن ما يجعل المالكي يستميت في التمسك بمنصبه هو ما يشاهده من الدعم الإيراني له، وأيضا حصوله على الدعم الأمريكي، كما تبين من الزيارة السابقة لجوزيف بايدين نائب الرئيس الأمريكي ومجلس الأمن القومي الأمريكي لبغداد.

والدعم الأمريكي للمالكي رغم الرفض والتحفظ الوطني والإقليمي عليه، يبرهن على أن الولايات المتحدة تريد الاستمرار في عزل العراق عن محيطه العربي الواسع. المالكي أحد أوجه الأزمة السياسية في العراق اليوم، ومرد هذه المشكلة يعود إلى الارتباك وإلى خوف الجميع من الجميع.

القوى السياسية في العراق اليوم بلا رصيد أو تاريخ سياسي يضمن لها أنها ستبقى فيما لو تم استبعادها.. أي إبعاد أو تقليل لدور إحدى هذه القوى، قد لا يعني فقط إبعادها لدورة مقبلة، بل يصل الأمر إلى إزالتها عن المشهد السياسي برمته.

هذا الخوف دفع القوى إلى ممارسة كل طريقة ممكنة كي لا تتباعد عن السلطة. شاهدنا تحالف الائتلافين دولة القانون والائتلاف الوطني، وما هي إلا فترة بسيطة حتى عاودت خلافاتهما البروز بشكل أكثر حدة، وتزعزع هذا التحالف الهش الذي لم يوجد لأجل حاجة سياسية مسؤولة، بل من أجل تمرير نوع من المصلحة الخاصة المتبادلة بين أهل التقسيم الطائفي وأصحاب نظرية المكون الأكبر.

هذا الارتباك والخوف المتفشي في العملية السياسية مرده إلى ظاهرة متأصلة في عالنا العربي، وهي أن من لا يملك السلطة والحكم يصعب عليه التخلي عنها.. مثال صريح على ذلك هو هذه النخبة التي حكمت العراق في سنواته الماضية، وحظيت بكامل الدعم الأمريكي وغيره، ولا تريد الآن أن تنزح عن مكانها في السلطة رغم عدم فوزها، ورغم كثرة الأمور التي لم تنجح فيها في فترة حكمها السابقة.

ديمقراطيات وليدة

هناك نوع من فراغ تولده الحرية التي تأتي مترافقة مع الديمقراطية، والسلطة التي تأتي بعد عملية التحول الديمقراطي سلطة تنحو إلى ملء ومصادرة هذا الفراغ لنفسها.

لقد تعارفنا على أن الاحتفاظ بالقمة أمر أصعب من بلوغها، لكن في عالم السياسة العربية الوصول إلى السلطة هو الصعب، لكن الاحتفاظ بها يكون أسهل. لماذا؟ لأن الفوز بالسلطة حتى لو عبر نظام انتخابي، لا يعني الفوز فقط بدورة انتخابية، بل يمثل أيضا استفراداً بالسلطة! ومن يستفرد بها يؤسس لنسق ودرب جديد، ويكون قادراً على صنع دعايته

ما معنى العودة إلى المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية المباشرة؟

الإصرار الأمريكي، بعد التوافق التام مع نتنياهو، على استئناف المفاوضات المباشرة، وخضوع الرئيس محمود عباس، بعد التفاهم مع الحكومة المصرية، لدخول المفاوضات المباشرة، بعد إسقاط كل الشروط التي سبق ووضعها، وتعاون الرباعية لتسهيل عملية إطلاق المفاوضات المباشرة ثم إجراؤها بمشاركة الرئيس الأمريكي أوباما شخصياً لإطلاقها، كل هذه العناصر بحاجة إلى تفسير للكشف عن الهدف الأمريكي من جهة، ومغزى نتنياهو من جهة أخرى من ورائها، ومن ثم الإجابة عن السؤال: هل ثمة إمكان لخروجها باتفاق ما أم ستنتهي إلى فشل كما يذهب الذين يصفونها بالعبثية أو يعارضونها لأنها عبثية؟



مير شليف

بالنسبة إلى الإدارة الأمريكية ما زال الهدف من إطلاقها أولاً، ومن أجل الوصول إلى اتفاق ما ثانياً، يقوم على قناعة الجيش الأمريكي، كما عبّر عن ذلك كل من رئيس الأركان مولن، والجنرال بترابوس (قائد المنطقة الوسطى والآن يقود حرب أفغانستان)، بأن الوصول إلى اتفاق ما في الموضوع الفلسطيني من شأنه أن يخدم الحروب التي تخوضها أمريكا في العراق وأفغانستان، كما يخدمها في مواجهتها مع إيران (ما يصفونه بنزع الورقة الفلسطينية من يدها، ويد حزب الله)، الأمر الذي يساعد على تحقيق اندفاع رسمي عربي وإسلامي أكبر إلى دعم السياسات الأمريكية من دون المعكر الفلسطيني الدائم.

كان هذا هو المحرك الرئيس لتعيين جورج ميتشل مبعوثاً خاصاً لأوباما من أجل تحقيق اتفاق ما في الموضوع الفلسطيني، وهو الذي يفسّر ما بذلته إدارة أوباما من إصرار على إطلاق المفاوضات الثنائية من أجل تحقيق هذا الغرض، وذلك بالرغم من الانتكاسات التي واجهها ميتشل في هذا السبيل.

ولكن نشأ دافع آخر وراء الإصرار الأمريكي الأخير لإطلاق المفاوضات المباشرة وهو استرضاء اللوبي اليهودي الأمريكي لتخفيف ما نشأ من صراع بينه وبين أوباما عندما حاول ميتشل أن يطلق المفاوضات على أساس وقف النمو الاستيطاني، مما واجه معارضة شديدة من نتنياهو، أو عندما عدل الموقف، ولكن ضمن إطار المفاوضات غير المباشرة فيما أراد نتنياهو أن تكون مباشرة.

ويعزو الكثيرون إصرار أوباما على تلبية مطلب نتنياهو في أن تكون المفاوضات مباشرة وبلا شروط مسبقة، له علاقة بالانتخابات النصفية القادمة للكونغرس، وذلك بعد أن تدهورت شعبيته، وأصبح بحاجة ماسة هو وحزبه الديمقراطي إلى الدعم من قبل اللوبي اليهودي الأمريكي. وبهذا أصبح الهدف مزدوجاً في تفسير ما بذلته إدارة أوباما من "ضغوط" على محمود عباس وبعض الحكومات العربية، وفي مقدمتها الحكومة المصرية، من أجل إطلاق المفاوضات المباشرة.

وبالنسبة إلى نتنياهو فقد راح يعاني من أزمة عميقة ولا سيما بعد النتائج التي تشكلت على مستوى عالمي إثر العدوان على أسطول الحرية، فقد تدهورت سمعة الكيان الصهيوني عالمياً، وأصبح تحت الضغط الشديد لتشكيل لجان تحقيق بالجرم التي ارتكبت بحق أسطول الحرية، وقد جاء ذلك تنويجاً لأزمته:

من الخطأ الركون إلى القول أن المفاوضات ستكون فاشلة حتماً، أو القطع باستحالة خروجها باتفاق ما يمكن المتاجرة به لاحقاً، وتمير السياسات الأمريكية الإسرائيلية في المنطقة.

من جانب كل الحريصين على عدم تصفية القضية الفلسطينية. تبقى حجة، طالما استخدمت من قبل الذين يقطعون بفشل المفاوضات تستند إلى ما يسمونه تهكماً بـ "وطنية نتنياهو"، لأنه يريد أن يفرض تسوية ضمن شروطه بالكامل، الأمر الذي يجعل من المتعذر التعاطي معه، ولكن هذا التقدير بالنسبة إلى نتنياهو يجب عدم الركون إليه أيضاً، وذلك إذا ما تم التأكد من عدم قدرته على الخروج من أزمته الراهنة من خلال الحرب والانتصار فيها، وهذا ضغط خطير عليه وعلى الكيان بأسره مضافاً إليه الضغوط الآتية من الجاليات اليهودية في الخارج، والتي أصبحت مأزومة في تعاطيها مع الرأي العام العالمي الذي أضحي ينظر إلى دولة الكيان الصهيوني كمجرمة حرب وعنصرية من الدرجة الأولى، وأخيراً وليس آخراً ضغوط الجيش الأمريكي الذي يشعر بحاجة ماسة إلى انتزاع الملف الفلسطيني من خصومه.

والخلاصة من كل ذلك، صحيح أن نتنياهو عنيد إلى حد الحمق، وصحيح أن ضعف المفاوضات قبالة يغريه على التشدد وطلب المزيد، ولكن نتنياهو في النهاية يظل رجل سياسة وحكم وانتهازي من صنف رفيع أيضاً، وهو إلى جانب ذلك ليس بلا نقاط ضعف شديدة ولا سيما أزمة الكيان الصهيوني في ميزان القوى الراهن وإزاء الرأي العام العالمي (خصوصاً اليهودي في الخارج).

الأمر الذي يجعل من الخطأ الركون إلى القول أن المفاوضات ستكون فاشلة حتماً، أو القطع باستحالة خروجها باتفاق ما يمكن المتاجرة به لاحقاً، وتمير السياسات الأمريكية الإسرائيلية في المنطقة.

وما قد ينجم عنها من نتائج. وذلك إلى جانب اطمئنانه من فقدان إرادة المفاوضات الفلسطينية (ومن ورائه المصري) أمام الضغط الأمريكي، كلما واجهت المفاوضات، تعقيداً، يجب أن يُحل في مصلحته. ولكن السؤال المطروح هو: هل ثمة سياسة أمريكية، بالدرجة الأولى، تريد تحقيق ما هو أكثر مما أشير إليه من مكاسب آتية من وراء إطلاق المفاوضات المباشرة، خصوصاً، محاولة كسب اللوبي الصهيوني الأمريكي في الانتخابات النصفية للكونغرس القادمة، ومحاولة إنقاذ الكيان الصهيوني من أزمته السياسية والمعنوية العالمية؟

الجواب: ستحاول إدارة أوباما وبجدية أن تصل إلى اتفاق ما فلسطيني-إسرائيلي، وليس مجرد مفاوضات تدور حول نفسها، وتنتهي بالانسداد أو الفشل، وذلك تلبية للهدف الذي عبّر عنه مولن وبترابوس. ولهذا من الخطأ الركون إلى القناعة القائلة بعبثية المفاوضات أو بحتمية فشلها حتى لو كان الأرجح فشل التوصل إلى اتفاق يسمح للمفاوضات الفلسطينية، ومن ورائه المصري، ولجنة المتابعة، بتغطيته. وذلك لأن أميركا ستكون جادة في عدم الوصول إلى انسداد بل في تحقيق اتفاق يخدمها، أو تستخدمه، في مواجهتها ضد إيران وقوى المقاومة والممانعة في المنطقة.

يضاف إلى هذا الهدف الأمريكي رغبة محمود عباس وبعض دول "الاعتدال العربي"، في الخروج من أزمة فشل الرهان على أميركا واستراتيجية التسوية، مما يسهل التراجعات والتنازلات المطلوبة للتوصل إلى اتفاق ما. الأمر الذي يفترض عدم الركون إلى نظرية حتمية فشل المفاوضات القادمة، بل التعامل معها بأعلى درجات الخطورة واليقظة

الأولى الناجمة عن فشل الجيش الإسرائيلي في حربي 2006 و2008/2009 ضد المقاومين اللبناني والفلسطينية والأزمة الثانية: أزمة تدهور سمعته العالمية كمرتكب لجرائم حرب.

ولهذا يُراد إطلاق مفاوضات ثنائية مباشرة للتخفيف من عزلته الدولية، وربما أظهرته كرجل يبحث عن السلام. ولكن من دون أن يكلفه ذلك تقديم أي تنازل ولو شكلي لحفظ

نشأ دافع آخر وراء الإصرار الأمريكي الأخير لإطلاق المفاوضات المباشرة وهو استرضاء اللوبي اليهودي الأمريكي لتخفيف ما نشأ من صراع بينه وبين أوباما عندما حاول ميتشل أن يطلق المفاوضات على أساس وقف النمو الاستيطاني.

بعض ماء الوجه لسلطة رام الله وقرارات لجنة متابعة مبادرة السلام العربية في الجامعة العربية.

وبكلمة، لا تفسير لاندفاع نتنياهو باتجاه إطلاق مفاوضات مباشرة سوى الخروج من أزمة شديدة بعضها ظاهر وبعضها متستر عليه (مثلاً أزمة الخوف من نتائج أي حرب تشن ضد لبنان أو قطاع غزة أو سورية أو إيران في وقت فقدت فيه أميركا السيطرة على التسليح في هذه الجبهات).

على أن هذا العامل ما كان ليدفع نتنياهو، بهذه القوة، نحو المفاوضات المباشرة لولا أنه ضمن خضوع أوباما للوقوف إلى جانبه بشكل حاسم في عملية المفاوضات المباشرة،

القدس عدوان وعنوان

تصادف هذه الأيام ذكرى إحراق المسجد الأقصى، ولم يتغير شيء، ما زلنا نكرر نفس العبارة "يصادف اليوم الذكرى كذا لجريمة إحراق المسجد الأقصى المبارك"، لم يتغير شيء فالأطماع هي بل زادت، وعجزنا هو بل زاد، والأقصى أسير ينتظر، والخطر يهدده ليل نهار، أساساته على وشك الانهيار، وأسواره تواجه الاندثار، والاعتداءات تتكرر باستمرار.

إبراهيم حماني

حرب شرسة تمتد من الأحياء إلى الأموات، ومن البلاد إلى العباد، هو ما يجري اليوم في القدس بغرض تفرغها من سكانها الأصليين، وبطريقة الإحلال الجزئي والقسري، وبوسائل لا يسلم منها مبنى ولا مقبرة، وفي إطار خطة متدرجة لتهود المدينة وبأسرع وقت ممكن، لاستباق أي اتفاق على وضع المدينة، بحيث تصبح المتغيرات أمراً واقعاً لا يمكن تغييره، فلا قبر نبش سيعود، ولا أثر أزيل سيعمر من جديد.

يجري كل هذا دون أي خطط مضادة من أي طرف كان، بل يلف الصمت والتجاهل كل المسؤولين بمختلف توجهاتهم، عرباً كانوا أو فلسطينيين، وكان الأمر لا يعنيهم، أو ربما على طريقة "للبيت رب يحميه"، بل تشير أصابع الاتهام إلى أطراف بعينها بالتواطؤ لتضييع القدس.

وهذا ما حدا بحاتم عبد القادر وزير القدس في حكومة فياض -على سبيل المثال- للاستقالة احتجاجاً على إهمال وتضييع القدس، أو ما نشر بتاريخ 2006/7/25 حول قرار فصل نحو ثلاثين موظفاً يعملون في الأوقاف بمدينة القدس، حين كشف عددٌ من حراس المسجد الأقصى المبارك عن مؤامرة ثلاثية تحاك ضد مدينة القدس الشريف بشكل عام والمسجد الأقصى بشكل خاص من أجل تقيضه والسيطرة عليه وتقسيم المدينة المقدسة وإنهاء ملفها بشكل كامل لصالح الاحتلال، وبأن أصحاب القرار والنفوذ داخل دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس المحتلة هم الذين يُطبّقون ما يتفق عليه!

مخططات التهويد

تتعدد محاور التهويد وأهدافه لكنها تتركز على ثلاثة متركبات أساسية: 1 مصادرة الأراضي، تحت مبررات ومسميات عديدة، منها بناء مستوطنات جديدة ومنشآت عامة، كما حدث مؤخرًا لمقبرة مأمون الله وتجرير مئات القبور فيها، أو بناء طرق وجسور، وغيرها من الأسباب التي لا يعدمها الاحتلال. وحتى تحكم سلطات الاحتلال سيطرتها على القدس الشرقية، وحتى تصادر أكبر قدر ممكن من الضفة الغربية، قامت بتوسيع مساحتها من 6,5 كلم² إلى أن بلغت 123 كلم² عام 1990، كما استولت على 86% من أراضي القدس ومنعت الفلسطينيين من استخدام 10% من الأرض ليبقى لهم 4% فقط، وأنشأت 11 حيا يهوديا في القدس الشرقية، ثم أحاطتها بطوق آخر من 17 مستوطنة يهودية، إلى أن بلغ عدد اليهود شرقي القدس نحو 200 ألف مستوطن.

أما الجدار المسمى بغلاف القدس فأمره مختلف، حيث سيضمن عند انتهائه (76 كلم) عزل مدينة القدس بكاملها عن محيطها العربي الطبيعي، ويربطها بالمستوطنات المنتشرة داخلها وحولها، ليضمن أقل وجود سكاني عربي وأكبر كثافة للمستوطنين، عازلا عشرات القرى والبلدات ومئات الآلاف من الفلسطينيين خارج أسواره. 2 الإحلال السكاني، عبر سلسلة طويلة من الإجراءات للتضييق على السكان المقدسيين العرب، ويلخص وضعهم ما سبق أن ذكره الأستاذ محسن صالح حين قال إن 4% المتبقية من مساحة القدس الشرقية هي التي يستطيع أن يعيش فيها أكثر من

230 ألف فلسطيني، والحصول على رخصة بناء بيت حلم يحتاج نحو خمس سنوات مع مصاريف تصل إلى ما بين 25 و30 ألف دولار، وهو إنجاز لا يحصل إلا نادرا، والسلطات الإسرائيلية لا تسمح عادة بصيانة المباني وترميمها أو توسيعها وزيادة طوابقها.

وعندما يضطر المقدسي إلى البناء دون ترخيص يكون الهدم مصير بيته، وإذا اضطر المقدسي للسكن خارج بلدية القدس في مناطق الضفة الغربية المجاورة، فإن قانون "مكان الإقامة" الإسرائيلي سيلاحقه ويصادر بطاقته المقدسية ويحرمه من السكن في القدس، فقد تمّت مصادرة 6381 بطاقة هوية مقدسية بين عامي 1967 و2000.

وتلاحق المقدسي المضربان والإغلاقات العسكرية وتحريشات اليهود المستوطنين، هذا عدا انتشار الفقر والبطالة، وسعي الاحتلال الحثيث لتخريب الشباب

وأكد أن القائمة تضم أيضا كنائس ومعالم مسيحية أثرية عريقة أهمها كنيسة أم العمد، إضافة إلى ما يسمونه حديقة برعام التي تقوم على أنقاض قرية فلسطينية اسمها كفر برعم، وسكانها من الذين تم

محاولات تدمير المسجد الأقصى لم ولن تتوقف، وتسعى حكومة الاحتلال لاستغلال المتطرفين اليهود حتى تكون بمنأى عن المساءلة القانونية على المستوى الأممي في حال تنفيذ أي جريمة بحق المسجد

تهجيرهم عام 1948، كما تضم القائمة عددا من القبور والمقامات الإسلامية الشهيرة في فلسطين، أبرزها مقام النبي صموئيل غربي القدس، وقبر يوسف في نابلس، إضافة إلى مغارة التوأمن غرب القدس، ووادي وكهوف قمران غرب البحر الميت، حيث اكتشفت 85 مخطوطة تاريخية في أكثر من 11 كهفا من هذه الكهوف.

كذلك فإن بلدية الاحتلال لا تنوي فقط تنفيذ أعمال إنشاء في طريق باب العامود فحسب، بل ستطال هذه الأعمال أغلب شوارع وممرات البلدة القديمة التي يبلغ عددها 361 طريقا وتشغل نحو 85 دونما، أي نحو 10 من مجمل مساحة البلدة القديمة، لتطال أماكن هامة للمسيحيين والمسلمين في البلدة القديمة كطريق باب العامود وسوق خان الزيت وطريق الواد وسوق العطارين وطريق حارة النصارى وطريق القديس متري وساحة عمر بن الخطاب وطريق الآلام وطريق الرسل وباب الغوافة وعقبة دير الحبشة وطريق مار مرقص. ولإضفاء المزيد من الشرعية على الحق المزعوم في بيت المقدس، تقوم مؤسسات الاحتلال بتشويه وتغيير حتى الروايات التاريخية، وتنتشر اليوم موسوعات ومواقع تتحدث عن تاريخ القدس بشكل يتجاهل الوجود الإسلامي والعربي فيها، قافزة آلاف السنوات، وكأن التاريخ توقف في تلك الفترة، ناهيك عن خلق روايات وتفصيل جديدة.

المسجد الأقصى

منذ احتلال القدس عام 1967 يتعرض المسجد الأقصى لاعتداءات متكررة ومتوالية، ولم تكن جريمة إحراقه عام 1969 هي الوحيدة، حيث رُصدت عشرات المحاولات للاقتحام أو الإحراق. اعتداءات تتم في أغلبها على أيدي أفراد أو جماعات إرهابية متطرفة، لكنها بالتأكيد تلقى الدعم المادي والسياسي والمعنوي المطلوب من سلطات الاحتلال في لعبة لتبادل الأدوار باتت مكشوفة. وهذا يذكرنا بتصريحات وزير الأمن الداخلي في حكومة الاحتلال صيف العام 2004 تساهي هنغبي والتي كشفت النقاب أن مجموعات من المتطرفين أعدوا خطة لنسف المسجد الأقصى المبارك أو اغتيال شخصية إسلامية بارزة داخل المسجد. وقال هنغبي في مقابلة مع القناة الثانية في التلفزيون العبري إن سخطر اعتداء يهود متطرفين

أخلاقياً خاصة من خلال نشر المخدرات، وعراقيل الزواج من خارج القدس وغيرها.

أما الجانب الآخر من معادلة الإحلال فهي استجلاب أكبر عدد من اليهود لإسكانهم قسراً في القدس، وأيضاً عبر سلسلة طويلة من أساليب التحايل والتلاعب، وإبراز لأوراق ومستندات ملكية قديمة تظهر فجأة ودون أصل أو إثبات، لكن يتم اعتمادها بسرعة البرق من قبل سلطات الاحتلال. 3 تغيير التاريخ، إذ فشل الاحتلال خلال عشرات السنين من البحث والتنقيب والحفريات والأنفاق عن إثبات وجود أي أثر يهودي في المدينة المقدسة، وقد سبق أن أوضح شيخ الأقصى الأسير الشيخ رائد صلاح أن الآثار الدينية في القدس 80% منها إسلامي، و18% مسيحي، و2% لحضارات أخرى مرت على القدس، ولا يوجد أي أثر يثبت ادعاءات الاحتلال بشأن الأساطير الدينية أو غيرها.

ولهذا السبب تحاول سلطات الاحتلال جاهدة تغيير ملامح المدينة، ومحو الآثار الإسلامية والمسيحية فيها، حتى وإن كانت قبور موتى، وكذلك إعادة تسمية الشوارع والميادين والأبنية والآثار التاريخية، والإكثار من بناء الكنيس الضخمة وفي أماكن معينة حول المسجد الأقصى المستهدف الرئيسي في عملية التهويد المتواصلة. وقد سبق أن كشف الأمين العام للهيئة الإسلامية المسيحية حسن خاطر في بدايات هذا العام النقاب عن قائمة معالم أعدتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي لضمها إلى ما تسميه مواقعها التراثية، تضم قرابة 150 موقعا تاريخيا ودينا فلسطينيا، موضحاً أن القائمة تكاد تستحوذ على معظم معالم ورموز الأرض المقدسة. وقال إنها تحوي بالإضافة إلى المسجد الإبراهيمي في الخليل ومسجد بلال بن رباح في بيت لحم، أسوار البلدة القديمة في مدينة القدس المحتلة وبلدة سلوان جنوب المسجد الأقصى.

مخططات التهويد تتركز على: مصادرة الأراضي تحت مبررات عديدة، والإحلال السكاني باستجلاب اليهود وطرد المقدسيين العرب، وتغيير التاريخ بمحو الآثار الإسلامية والمسيحية بعد الفشل في إثبات أي أثر يهودي عبر الحفر والتنقيب



ومتعصبين على المسجد الأقصى أو مصليين في هذا المكان الأكثر قدسية بالنسبة للمسلمين، لم يكن بهذه الحدة كما هو عليه اليوم."

وأضاف "نشعر بأن مستوى التهديد على الحرم القدسي -بمعنى تنفيذ عملية من قبل يهود متشددين ومتطرفين- قد ارتفع في الأشهر الأخيرة والأسابيع الأخيرة على وجه الخصوص، أكثر من أي وقت في السابق."

وتابع قائلاً "إن المعلومات المتوفرة لدى أجهزة الأمن الصهيوني والشاباك تشير إلى تعاظم استعداد اليمين المتطرف لتنفيذ عمليات إرهابية."

ما ذكره هنغبي يتعدى كونه تهديدات إلى كونه توجهات لدى حكومة الاحتلال تسعى من خلالها لقراءة ردود أفعال الشارع أولاً، وثانياً فتح الطريق أمام الرأي العام العالمي للفصل الصوري بين الاحتلال من جهة والمتطرفين من جهة أخرى. وهذا يعني أنه في حال تنفيذ جريمة نسف المسجد الأقصى ستكون حكومة الاحتلال بمنأى عن المساءلة القانونية على المستوى الأممي.

محاولات تدمير المسجد الأقصى لم ولن تتوقف، والمواجهة الحالية التي تجري على أرض فلسطين الحبيبة تسرع في وتيرتها، وبناء الهيكل المزعوم يرون فيه خلاصهم وتحقيقاً لبنوءات مزعومة، والحفريات والأنفاق صدعت جدرانها وبتت أجزاء منه على وشك الانهيار، والمؤامرة يشترك فيها هذه المرة أبناء جلدتنا، ونحن ما زلنا نشجب وندين ونستنكر ونندد ونطالب ونناشد ونندعو!

يبقى المسجد الأقصى بصخرته الشهيرة، صخرة حقيقية في وجه تلك المخططات وعمليات التغيير والتشويه، ورغم حجم الهجمة والتأمر كان دائماً بمثابة الشرارة التي تشعل المنطقة، تماماً كما حدث في محطات معينة من قبيل محاولة إحراقه عام 1969، وهبة النفق عام 1996، وانتفاضة الأقصى بعد تدنيس شارون له عام 2000.

وماذا بعد؟

بتسارع لافت يتم تهويد القدس، وبتباطؤ لافت أيضاً يهتم الاحتلال بالعودة إلى المفاوضات التي لا يحصل فيها الطرف الفلسطيني على شيء، وبين التسارع والتباطؤ تضييع القدس رويداً رويداً، وتهود المدينة، وينتظر المسجد الأقصى مصيره.

لكن مع كل ذلك، ومع قراءة لوضع تاريخي مشابه إبان الحملات الصليبية التي احتلت القدس قرابة 200 عام، وبقي الأقصى أسيراً 88 عاماً لم يرفع فيه أذان وتحول إلى مرتع للخنازير وإسطبل للخيول.. مع كل ذلك عاد إلى أصحابه بعد كل تلك السنين، واندحر العدوان الصليبي غير المقدس عن بيت المقدس.

وهكذا سيكون مع الاحتلال الحالي، لكن بعزيمة وإرادة ويقين بالنصر القادم لا محالة، وتبقى القدس بمسجدها الأقصى المبارك هي المفتاح والعنوان رغم العدوان!